المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثاني والستين

١ مارس (اذار) سنة ١٩٢٣ — الموافق ١٣ رجب سنة ١٣٤١

ما يفعل العزم

سيرة ارثر مكمروكاڤنا (١)

قرأنا سيرة هذا الرجل في جزء فبراير من مجلة القرن التاسع عشر فاستغربنا كيف اغفلها المستر سميلز الذي نقلنا عنهُ كتاب سر النجاح . لانها تستحق ان تُذكر في مقدمة سيَر الرجال العظام الذين ولدوا يحيط بهم كل ما يعوق سيرهم وتقدمهم فتغلبوا عليهِ بما اوتوا من قوة العزم وعلو الهمة

في جسم الانسان قوة مذخورة تفوق ما يحتاج اليهِ عادة لكي يستعملها وقت الحاجة الشديدة اليها. وهذه القوة توجد ايضاً في الارادة وهي اكثر مما تستعملهُ عادة اضعافاً مضاعفة فاذا دعت الحال واستعملها صاحبها عمل بها العجائب كما يتضح من سيرة هذا الرجل

ولد سنة ١٨٣١ وابوهُ من نسل ملوك لينستر احدى ولايات ارلندا الاربع وامهُ ابنة لورد كلانكارتي فهو من هذا القبيل ممن يخول تحيط بهِ كل وسائل الجاه والرفاه ولكن ما تفعل هذه الوسائل ولا يدين ولا رجلين فانهُ ولد ويداهُ مقطوعتان من عند المرفقين ورجلاهُ مقطوعتان من عند الركبتين . فلما رأتهُ امهُ على هذه الحال زاد عطفها عليهِ وذلك قاعدة تكاد تكون مطردة فان شفقة الام يكون اشدها على اضعف اولادها . اما هو فلم يكد يدرك ما هو فيهِ من النقص الخلقي حتى عزم ان يتغلب عليهِ ولا يقصر عن الكاملين . وكان من سعدهِ ان

(١) Arthur McMurrough Kavenagh

امهُ كانت من توابع النساء وكذا كانت امهات اكثر العظماء . فانها كانت متعلمة متهذبة تحسن لغات كثيرة وتشارك في فن التصوير لا يفارقها دفتر الرسم في اسفارها . علَّمتهُ منذ نعومة اظفاره ان النقص الذي ولد فيهِ انما هو من المصاعب التي يجب ان يتغلَّب عليها وكان زوجها قد توفي فصبت عنايتها على هذا الولد

ولم يكن في الامكان ان يرسل الى مدرسة يتعلم فيها مثل سائر الاولاد فاستخدمت لهُ معلمين يعلمونهُ في البيت وانتقلت بهِ الى فرنسا حيث تعلم اللغة الفرنسوية فمال الى تعلم اللغات ورغب في السياحة . وكانت تمني نفسها بالمجيء الى الارض المقدسة فاتت بهِ الى مصر سنة ١٨٤٦ وعمرهُ ست عشرة سنة ومعها ابنها الاكبر وابنتها ومعلم اولادها وذلك في اواخر عهد محمد علي باشا . فاقلموا من مرسيليا في اواسط اكتوبر ولما بلغوا القاهرة استأجروا ذهبية وصعدوا في النيل الى حد الشلال الثالث . وكانت امهُ قد أعدَّت لهُ بندقية تربط بزندهِ وصندوقاً يربط بسرج الفرس او الحمار ليجلس فيهِ فجعل يخرج للصيد كذلك على ضفتي النيل وزار هياكل طيبة فوقفت من نفسهِ موقفاً عظيماً حتى انهُ اسف لما فارقها وعاد الى القاهرة . ولم يترك عملاً يعملهُ السياح في مصر الاَّ عملهُ كالنزول الى سراديب المدافن والصعود الى اعالي الاهرام وما شاكل

وجعلت امهُ تعدُّ عدتها للسفر الى فلسطين برًّا بطريق جبل سينا . والشقة طويلة وكانت كثيرة المخاطر في تلك الايام فانتظرت الى ان وجدت ثلاث قوافل فيها ستون جملاً سائرة في ذلك الطريق فسافرت معها باولادها وكان معهم ثلاث خيام واحدة لها ولابنتها وواحدة لولديها ومعلمهما وواحدة للترجمان والطباخ والخادم . وكان ارثر صاحب الترجمة اصغر اولادها ولكنهُ كان اذكاهم فحفظ ما سمعهُ من الكلام العربي حتى صار يقف بين امهِ والعرب موقف الترجمان . وزاروا اورشليم ودمشق وتدمر وبعلبك وبيروت ولما وصلوا الى جبل الشيخ اشترى فرساً من حاكم البلاد وركب عليهِ الى ان وصلوا الى بيروت ثم اشتروا كلهم خيلاً من بيروت وعادوا بها الى مصر بطريق غزة ورفح والعريش واقلموا من الاسكندرية الى ارلندا فبلغوها في اوائل سنة ١٨٤٨

والظاهر ان هذه الرحلة الى مصر والشام اغرمت في قلب صاحب الترجمة الميل

الشديد الى الاسفار الشاسعة مهما كان فيها من المشاق والمخاطر فاختط لنفسهِ خطة شاقة وهي ان يسافر الى الهند فسافر اليها بطريق تروج واسوج وفنلندا وروسيا الى بحر قزوين وبلاد الفرس فخليج فارس ومنهُ الى بمباي وبرار في الهند ولم يكن معهُ الاَّ اخوهُ الاكبر ومعلمهُ وخادمهُ . فقاموا في شهر يونيو سنة ١٨٤٥ ووصلوا الى بلاد الفرس في فصل الشتاء وكان البرد قارساً والارض مغطاة بالثلج والسكك في جوانب الجبال ضيقة وارضها صخرية وكان فرسهُ يُقطّر الى بغل الامتعة فلما رأى ضيق السكة وان تحتها وادياً عميقاً قال ان في قطر فرسي خطراً مزدوجاً فطلب ان يفصل عن البغل ولم يكن الاَّ قليل حتى لطم صندوق على ظهر البغل صخراً ناشزاً من جانب الجبل فتدهور البغل بحملهِ في تلك الهوة واختفى اثرهُ

ولما وصل الى بلاد الهند جعل يتطلب الافيال ويخرج لصيد النمر (الاسد الهندي) والدب والفهد وقضى الصيف في الصيد ومشاهدة مناظر الهند . ولما جاء الخريف مرض اخوهُ بغتةً فاشير عليهِ ان يذهب الى استراليا فذهب اليها مع معلمهِ واشتدَّ عليهِ المرض فمات في باتافيا واستمرَّ معلمهُ في سفرهِ الى استراليا ولكنهُ اصيب فيها بحادثة قضت عليهِ . فترك كافنا في الهند وحيداً شريداً لا مال معهُ ولا شيء غير الهمة والعزم فاراد بعض معارفهِ ان يعاونهُ الى ان يأتيهُ ما يحتاج اليهِ من المال من بلادهِ فابى الاَّ ان يُعطى عملاً يعمل بهِ فجعل ينقل البريد محمولاً على ظهر جواد ثم استخدمتهُ شركة الهند الشرقية في فرع المساحة اي استخدمت عقلهُ . وبقي سنة على هذه الحالة الى ان جاء البريد من ارلندا وجاءتهُ النقود معهُ . وكان قد ارضى مستخدميهِ حتى انهم ابقوا لهُ المنصب الذي كان فيهِ اذا اراد الرجوع اليهِ . اما هو فعاد الى ارلندا سنة ١٨٥٣ وتولى ادارة الاملاك الواسعة التي تركت لهُ لان اخاهُ الثاني توفي بعد قليل فصار الوارث الوحيد لاملاك والديهِ

وكتب رحلتهُ هذه في كتاب كبير كان يتأبط القلم ويكتب بهِ كتابةً دقيقة محكمة وقيل ان كتابتهُ لرحلتهِ على هذه الصورة من اعجب الاعمال التي عملها

وكانت صناعة الفوتوغرافيا في بداءتها فاشتغل بها واتقنها . وبقي مغرماً بالصيد يجلس في صندوق ويمسك اللجام بحدى ساعديهِ وكأن الجواد كان يدري ان على ظهرهِ راكباً فاقد اليدين والرجلين فكان طوع امرهِ يتحرك كما يشاء

راكبهُ. واتفق مرةً ان جوادهُ جمح لامر اخافهُ وذهب به لا يلتوي واتصل حينئذٍ السير الذي كان صندوقهُ مربوطاً به الى ظهر الجواد فسقط فاقد الشعور. ووُجد بعد حين والجواد قائماً الى جانبهِ كأنهُ حارس لهُ

وذهب مرةً الى بلاد الارناؤوط مع جماعة لاجل الصيد واضطرَّ ان يركب فرساً من خيل البلاد هيكلهُ عظام لانهُ لم يجد فرساً غيرهُ. واتفق ان رفاقهُ ابعدوا عنهُ وكان سائراً في عرض جبل وتحتهُ واد عميق فعثر الفرس وانقلب الى ذلك الوادي ولكنهُ علق بسياج من الصبير (التين يشوكه) وكل ما فعلهُ انهُ نادى الرجال حتى حلوا السير الذي كان صندوقهُ مربوطاً بهِ ولم يكادوا يخلصونهُ حتى تدحرج الفرس الى ذلك الوادي

ولما كثرت اشغاله باع خيلهُ التي كان يصطاد عليها وعكف على صيد السمك وقطع الاشجار للتسلي والرياضة وكان يتأبط الفاس ويقطع بها الشجرة الكبيرة قطعاً محكماً حتى تبقى اورمتها في الارض سطحاً مستوياً. الاَّ ان نوع التسلي الذي رغب فيهِ وواظب عليهِ ركوب البحر فاقتنى يختاً صغيراً محمولهُ ١٣٠ طناً سماهُ ايفا باسم ابنتهِ الكبرى وكان يركبهُ ويسير بهِ الى الجزائر اليونانية او البحر الشمالي ويكتب ما يراهُ وما يمرُّ بهِ من العبر واصفاً ذلك وصفاً بليغاً. وبرع في سلك البحر وكان يشارك البحارة كأنهُ رئيسهم او واحد منهم. وسنة ١٨٦٣ انتقدت جريدة الفيلد اصحاب اليخوت لانهم لا يخبرون عما يرونهُ في البلدان التي يسافرون اليها فنشر سنة ١٨٦٤ تفاصيل ما رآهُ بيختهِ في سواحل البانيا (بلاد الارناؤوط)

وكان اسلافهُ يقيمون في املاكهم الواسعة ويتولُّون ادارتها بانفسهم فسار في خطتهم لما انتقلت الاملاك اليهِ واهتم بامور الفقراء والايتام مؤيداً قول درومند القائل ان على اصحاب الاملاك حقوقاً كما لهم حقوق

واقترن سنة ١٨٥٥ بابنة حالهِ فكانت اكبر معين لهُ في اعمال البر والاحسان التي عمل بها الفلاحين في املاكهِ. ووُكِّل بالقضاء بين الناس في البلاد المجاورة لهُ فقضى بينهم بالعدل واشتهر امرهُ في ذلك وصار الناس يشيرون اليهِ بالبنان فانتخبوهُ سنة ١٨٦٦ عضواً في البارلمنت وكان المرشح المضاد لهُ السر جون عنسي ففاز هو عليهِ بسبعمائة صوت. ولم يجد صعوبة في دخول البارلمنت معما في ذلك من

الرسميات الكثيرة لان صيتهُ كان قد سبقهُ اليهِ فاحدقت بهِ الابصار لما أُدخل المجلس جالساً في كرسي ذي عجل الى ان وصل الى المائدة حيث دوّن اسمهُ وتقبّل تحية رئيس المجلس وللحال ضج الاعضاء كلهم باصوات التأهيل والترحيب جزاء وفاقاً للرجل الذي غلب الطبيعة بعزمهِ وحزمهِ

ولما جاء دورهُ للكلام خطب في مصالح وطنهِ ارلندا اي في مسائل الاملاك وسكك الحديد والزراعة والتعليم . وكان صوتهُ جليًّا وعبارتهُ منسجمة وحجتهُ محكمة تدلُّ كلها على صحة اعتقادهِ فيما يقول . ولما جرى الانتخاب العام سنة ١٨٦٨ اعيد انتخابهُ من غير معارض. واقام نائباً اثنتي عشرة سنة الى أن جاءت مسألة بارنل سنة ١٨٨٠ فتغلّب عليهِ مناظرهُ من حزب بارنل لكنهُ لم يأسف لذلك والمرجح انهُ سُرَّ لان حريتهُ زادت واتسع المجال امامهُ للاهتمام باصلاح بلادهِ على مبادىء المحافظين التي هي مبادئهُ . وكتب سنة ١٨٨٥ رسالة اشار فيها الى ضروب السياسة التي اتبعت بمدئذٍ في ارلندا فشدد في طلب الحكومة المحلية تمَّ ذلك سنة ١٨٩٨ واشار بان تبتاع الحكومة الاراضي من كبار الملاك وتعطيها للفلاحين المقيمين فيها تمَّ ذلك سنة ١٩٠٢ وانتقلت ثلاثة ارباع الاراضي من اصحابها الى الفلاحين الذين فيها . ولم يكن ذلك من مبادىء المحافظين حينما اشار بهِ لكنهُ كان ابعد نظراً من معاصريهِ . فلم ينفك عن الاهتمام بسياسة بلادهِ ولو لم يكن في البارلمنت

وواظب على اشغالهِ الكتابية والسياسية مع قليل من النزهة في بختهِ الى ان ادركتهُ الوفاة سنة ١٨٨٩

اذا كانت القدوة تفعل بالناس واذا كانت سير الذين غالبوا المصاعب والمشاق وتغلبوا عليها تشحذ الهمم الكالّة وتنبه العزائم الخاملة فهنا سيرة رجل وُلد اقطع اليدين والرجلين لكن ذلك لم يعقهُ عن بلوغ الطبقة العليا بين رجال عصره واهل وطنهِ فليتخذها طلاب المعالي مثالاً يقتدي بهِ

ان كاتب هذه السيرة في مجلة القرن التاسع عشر اراد بها تشجيع الذين فقدوا بعض اعضائهم في الحرب الاخيرة لكي لا يتولاهم القنوط ولعلها من اعظم المشجعات لكل احد في كل زمان